مجلة كلية الآداب بقنا (دورية أكاديمية علمية محكمة)

صناعة الأسطورة:

قصيدة "تل الزعتر" نموذجاً

د. عبدالسلام بهجت عبدالسلام سلام

مدرس الأدب والنقد والبلاغة

كلية التربية – جامعة مدينة السادات

DOI: 10.21608/QARTS.2022.100694.1253

مجلة كلية الآداب بقنا – جامعة جنوب الوادي – العدد ٥٤ (الجزء الأول) يناير ٢٠٢٢

الترقيم الدولي الموحد للنسخة المطبوعة ISSN: 1110-614X

الترقيم الدولي الموحد للنسخة الإلكترونية ISSN: 1110-709X

موقع المجلة الإلكتروني: https://qarts.journals.ekb.eg

صناعة الأسطورة:
قصيدة "تل الزعتر" نموذجًا

إعداد

د. عبدالسلام بهجت عبدالسلام سلام

مدرس الأدب والنقد والبلاغة

كلية التربية – جامعة مدينة السادات

a1bahgat@yahoo.com

الملخص باللغة العربية:

قد يفوق الواقع تداعيات الخيال، ويغلب بديهيات المنطق، ويجاوز المعقولات، ويصبح إدراكه بالعقل أصعب من إدراكه بالشعور، ويبقى الحلم طريقًا للحقيقة، وبخاصة إذا كان الواقع جزءًا أصيلًا من العقيدة؛ فاتصف بالقدسية، وعاشه شاعر مبدع يمتلك ناصية اللغة، ويمتلك قوى خيالية نافذة، ومقدرة إبداعية مميزة، ومهارة تمكنه من الملائمة بين الواقع والخيال، فإننا نكون هنا أمام مقومات صناعة أسطورة كاملة، بوسعها امتلاك خصائصها الفريدة المميزة.

يلجأ الشاعر إلى صناعة الأسطورة لإعادة إنتاج العالم على مستوى الرمز، وخطاب محمود درويش الشعري منذ بداية تجربته الشعرية يعبر عن معاناة الشعب الفلسطيني، ولا يقلل هذا من شاعريته؛ لأنه جزء من هذا الواقع الذي لا ينفصل عنه، فهو حين يعبر عن واقعه يعبر عن ذاته، ومن أبرز قصائد درويش التي جسدت تقنيات صناعة الأسطورة في الشعر العربي قصيدته " أحمد الزعتر"؛ حيث تمكن من أن يصنع أسطورة خالدة تحمل ملامح البطل، وتكشف عن أبعاد قضيته، وتلخص مأساة شعبه.

الكلمات المفتاحية: أسطورة، رمز، صناعة، محمود درويش، أحمد الزعتر، فلسطين.

أولًا: المُقدِّمة:

الأساطير، تلك الحكايات الساحرة التي تحلق بجناحيها في عالم الخيال والميتافيزيقا، منطلقة من الواقع، متجاوزة حدوده وفرضياته في تمازج عجيب بديع؛ بحثًا عن تفسيرات غائبة، أو منطقيات قد تنسى عقلانيتها، أو تبريرات قد تُسكِّن شغف الروح وتطلعات الاكتشاف وعطش المعرفة، وتحقق لذة الإدراك وجمال المكاشفة.

وإذا كانت الأسطورة تمثل "المغامرة الإبداعية الأولى التي ابتكرتها المخيلة البشرية فيما ابتكرته من المغامرات التي كانت صدىً للواقع المعرفي والجمالي والتطور الإدراكي للإنسان"(١)؛ فإنها تمثل مرحلة بدائية من إدراك الواقع، باستعمال الخيال في تفسير معطياته التي تبتعد عن منطقية العقل، وتتبنى الخضوع لقوى الطبيعة، لاجئة إلى عوالم متداخلة خارج نطاق الوعي، وإن امتدت روافدها إلى محاولات التتبع والاكتشاف والفهم، وإضفاء جماليات الاقناع.

فالأسطورة " تصدر عن حالة انفعالية تتخطى العقل التحليلي، لتنتج صورًا ذهنية مباشرة تعكس تلك العقلانية الكلاّنية بين الذات –الوعي والعالم– المادة. إلا أن الأسطورة ليست انفعالاً صرفًا لأنها توسط الأفكار في محاولتها للتعبير عن ذلك الانفعال ومَوْضَعَته في الخارج...إنها نوع من الحدس بالكلِّيات يُمَوْضِع معرفته الكلية في صور ومشاهد وشخصيات مفعمة برموز ذات دلالات، بعضها يتصل بعالم الوعي وبعضها يتصل بعالم اللاوعي" (٢).

وهذا التماهي بين ما هو مدرك وما يقع خارج نطاق الإدراك يرتفع بالأسطورة إلى نطاق المقدس، حيث التسليم بالقدرة غير المعللة، والاستسلام إلى فرضياتها، بل

والسعي إلى إمكانية تحققها وإن خالفت العقل، وتعدت على الواقع، ومنطقها في ذلك الخوارق التي لا قِبل للقدرة الإنسانية بها.

وبتتبع مجالات الأسطورة؛ سنجدها " على أربعة ضروب: الضرب الأول: يدور على تفسير شيء ما بسبب وجود دهشة عقلية. وهذا الشيء هو في الأغلب الأعمّ إحدى قوى الطبيعة المطلوب التحكم فيها. والضرب الثاني: يدور على الأسطورة من حيث هي تعبير رمزي يكشف عن نمط معين من التفكير هو الشعر الأسطوري. والضرب الثالث: الأسطورة فيه تعبير عن محتوى الوعي. والضرب الرابع: يبحث في وظيفة الأسطورة التي تتبلور في خلق التضامن الاجتماعي والمحافظة عليه؛ ومن هذه الزاوية فإن الأسطورة جزء من النسق الديني للمجتمع" (٣).

إنه عالم مواز – وإن انطلق من الواقع – تمتلك مفرداته قدسية مانعة، وقوى خارقة، وطاقات متجددة، وتفسيرات مدهشة، ورمزيات عميقة متداخلة، بالإضافة إلى وعي جمعيّ ثري يبرر وجودية الأسطورة، وتحليقها في فضاءات الفكر والمشاعر.

لقد امتلكت الأسطورة طبيعة خاصة أهلتها لأن تمتلك قوى تعبيرية هائلة؛ ترتكن على ساحريتها الباهرة وتاريخيتها المميزة ودلالاتها الثرية المتجددة ومخزونها الجمعي العميق وتأثيرها العميق في نفوس المتلقين؛ لما تتمتع به من بناء فني راقٍ، يشتمل على عناصر التشويق والإبهار؛ مما حدا بالأدباء إلى اللجوء إليها، يستلهمونها أو يوظفونها بغية استثمار طاقاتها التعبيرية المتفجرة وقوة تأثيرها الساحرة.

فإذا كانت الأسطورة تعدّ "شكلًا من أشكال النشاط الفكري، فهي بهذا المعنى تلتقي بالأدب بوصفه نشاطًا فكريًا أيضًا، كما تلتقي معه في أنّ لكليهما وظيفة واحدة، هي إيجاد توازن بين الإنسان ومحيطه. وكما تسهم الأسطورة في تحرير العقل من سطوة

الواقع، وتحلق به فوق عالم المحسوسات، وتمنحه طاقة ترميم حالات التصدّع التي ينتجها هذا الواقع، فإن الأدب يُعدّ هو الآخر بحثًا في الواقع، ولكن دون امتثال لقوانينه الموضوعية أو انصياع لأعرافه المادية"(٤).

إن هذا التشابه القوي بين الأدب والأسطورة – والذي يمثله انطلاقهما من الواقع وعودتهما إليه على مستوى الفكر– جعلهما يتكاملان؛ فالأسطورة في حاجة إلى الأدب بوصفه أداة تعبيرية قادرة على استيعاب طاقات الأسطورة جميعها، والأدب في حاجة إلى سطوة الأسطورة وقواها الرمزية وقدراتها الإيحائية التي تختزن خصائصها المميزة وتاريخيتها الوعائية للنشاط الإنساني؛ فكونها فكرًا وفنًا وتاريخًا، وعنصرًا بنائيًا مكونًا للفكر الإنساني؛ يجعلها تشكل خطابًا أدبيًا بوسعه أن يتناص مع التاريخ والميثولوجيا، مع استثمار قدرتها على توسيع آفاق المخيلة عن طريق الحلم والتخيل.

فالأسطورة تشكل نظامًا خاصًا في بنية الخطاب الأدبي، وقد يبدو هذا النظام عصيًا على الضبط والتحديد، وذلك لضبابية الرؤية المراد طرحها في النص الأدبي، ولكثافة الأسطورة نفسها غموضًا وتداخلًا مع حقول معرفية أخرى، فعندما نستحضر الأسطورة فإننا نستحضر التاريخ متداخلًا مع الميثولوجيا والخرافة، والحكاية الشعبية، والخيال وقوى الطبيعة، والخوارق، والمقدسات، وغيرها. وهنا يصعب علينا معرفة أوجهها كاملة، وذلك لتناصها مع كل هذه الحقول المعرفية.

وتاريخيًا فقد كانت الأسطورة ملاذ الإنسان الأول، للانتصار على خيباته، ولتخطي فواجعه، وسياسيًا كانت محاولة لخلق بديل جديد، أكثر إشراقًا وجمالًا، إنها النافذة التي يرى الإنسان من خلالها تحقق إنسانيته في واقع الزيف والقهر والخداع، لأنها

تخلق له حالة توازن نفسي مع محيطه ومجتمعه، فبوساطتها تتم عملية الحلم والتخيل، والاستذكار والعزف على أوتار القوى التي تتمكن من هزيمة الفواجع المدركة حقيقة.

ف " الأسطورة ليست إلا تراثًا بشريًا يحمل تفسيرًا خاصًا لمعنى أو شعور بالذات عند شعب من الشعوب. والأساطير تحمل بلا شك دلالات إنسانية لم تفقد قيمتها خلال التطور الحضاري. ولقد حاول الأدباء والفنانون علاج الكثير من هذه الأساطير، وذلك لتوضيح دلالتها أو تحميلها دلالات وتفسيرات جديدة تتفق مع روح العصر "(٥)

صناعة الأسطورة:

قد يفوق الواقع – في بعض الأحيان– تداعيات الخيال، ويغلب بديهيات المنطق ويجاوز المعقولات ويصبح إدراكه بالعقل أصعب من إدراكه بالشعور والتمني، وعندها يصبح الحلم طريقًا للحقيقة وتحقيقها، وبخاصة إذا كان الواقع جزءًا أصيلًا من العقيدة؛ فارتبط بالدين واتصف بالقدسية، وعاشه شاعر مبدع يمتلك ناصية اللغة، فأجاد ممارسة إبداعه عليها، وامتلك قوى خيالية نافذة، ومقدرة إبداعية مميزة، ومهارة مكنته من الملائمة بين الواقع والخيال، وبين المختلفات والمتشابهات. هنا نكون أمام مقومات صناعة أسطورة كاملة تمتلك خصائصها الفريدة المميزة.

فالشاعر قد يخلق " الرمز الجديد وينشئ الأسطورة الجديدة. وهو في هذا يحتاج إلى قوة ابتكارية فذة، يستطيع بها أن يرتفع بالواقعية الفردية المعاصرة إلى مستوى الواقعية الإنسانية العامة ذات الطابع الأسطوري، كما أنه يستطيع أن يرتفع بالكلمة العادية المألوفة إلى مستوى الكلمة الرامزة."(٦)

إنها حالة إدراك غير الممكن بالممكن، والوصول إلى الحلم المستحيل بالعقيدة وقوى ما وراء الطبيعة، إنها تحقق الحلم بالحلم، وصناعة حياة موازية بالتمني. ومن هنا تنبع أهمية الأسطورة وخطورتها، بوصفها منجى يشارك الإنسان بقدر كبير في صناعته وصياغته، بل وممارسة حياته من خلاله، ومحاولة تغيير واقعه المعيش؛ حيث تكتنز الأسطورة في بنيتها العميقة بدلالات إنسانية وحضارية، وتطلعات حياتية وقوى خيالية تمتزج بالواقع الذي هنا "يتشرب بالأسطورة والسحر دون أن يعتمد موروثًا أسطوريًا حكائيًا بعينه، ومن ثم فالشاعر هو الذي يخلق أسطورته الخاصة بدءًا من حدث أو نموذج أو واقعة في الحياة"(٧). ومع صعوبة تغيير الواقع، وفرض أنماط حياتية تخالف النزعات الإنسانية، تتخذ الأسطورة فيه صيغة المخرج النفسي تجاه قلق الإنسان وحيرته وتمزقه، وتصبح الوسيلة العلاجية التي تعمل على إتاحة المجال لإعمال الفكر؛ ليتمكن من استيعاب الواقع والتغلب عليه، وتأهيل الأفراد لتحمل تبعات ذلك.

ففي فترات المحن والشدائد التي يمر بها مجتمع ما، من حيث الشعور بالضعف والعجز عن التحمل أو المواجهة، تطفو الأسطورة على سطح الوعي، وتنبعث النبوءات القديمة من مرقدها لتفسير حقيقة ما يجري، ليرتكن عليها الوعي الجمعي متمسكًا بإمكانية المقاومة، ومحتميًا بقوى ما وراء الطبيعة التي قد تغير الواقع وتقلبه رأسًا على عقب، وتصير الأسطورة – عندها– منهجًا اجتماعيًا ورؤية تهدف إلى تحفيز الطاقات للمقاومة؛ بغرض تغيير الواقع.

يلجأ الشاعر– إذن – إلى صناعة الأسطورة بوصفها بنية أدبية؛ محاولاً من خلال تمثيلاتها وصورها الحركية إعادة إنتاج العالم على مستوى الرمز **symbol**، وذلك في إطار وحدات أدبية رامزة تعمل على اختزاله وإعادة تقديمه مجددًا إلى الوعي، فاللجوء إلى الأسطورة يمثل توظيفًا لقوى داخلية عميقة التأثير في نفوس الناس، قد تنطلق فجأة

إذا توافرت لها مقومات الانطلاق، حيث يحاول الشاعر تحفيزه باستحضار البطولة الغائبة، وتجسيد الأحلام الواعية، وجعل المستحيل واقعيًا في دائرة الممكن؛ فيمنح الشاعر للأسطورة مبررات تحققها، وعندما نستدعي البطل الأسطوري والتاريخي عبر زمن القصيدة وشفافيتها، فإن توقًا شديدًا يدفعنا لتقمص هذا البطل، وتمثل حالاته، بوصفه المخلص الذي يمتلك القوى الأسطورية لتغيير الواقع، وتحقيق الحلم المستحيل.

وإذا كانت الأسطورة "مصدرًا للإلهام الفني، فإن الشعر يلتقي بالأسطورة على نحو خاص- في أن كليهما- يمنح الزمان صفة الديمومة حيث بوسعنا أن نرى في الماضييْن الأسطوري والشعري الحاضر المستمر والمستقبل الدائم، ويتأسس على هذا أن تضافر الرموز المعقدة داخل القصيدة تؤذن دائمًا بالخلق الأسطوري في بنائه المعتمد على الرمز والقناع وكل تقنيات تتصل بهذا الخلق أو الصانعة."(٨)

إن توليد الأسطورة وخلقها، وإعادة صياغتها عملية جمالية، تهدف إلى البحث عن عالم مضيء يمكننا من احتمال الحياة، عالم لم يخنقه فساد الواقع، ولم يقتله ظلم المستبد، ولم تمحُ ملامحه قوى المصالح الغاشمة، ولكنه ولد من رحم كل هذه المآسي على المستوى التأملي والتخيلي؛ لإيجاد فعل المقاومة عسى أن تستمر الحياة.

فقبل أن يكون خلق الأسطورة في النص الشعري عودة إلى التراث والميثولوجيا، فإنه رؤية تستمد مكوناتها من اتجاهات الواقع، ووعي المجتمع وحلمه الراسخ، وتطلعاته القوية، فالتاريخ والميثولوجيا والواقع والوعي الجمعي كلها مكونات للفكر الأسطوري.

قصيدة أحمد الزعتر:

تعد قصيدة (أحمد الزعتر) واحدة من أبرز قصائد محمود درويش التي جسدت تقنيات صناعة الأسطورة في الشعر العربي المعاصر؛ وضمنها في ديوانه " أعراس"

الصادر عام ١٩٧٧م؛ حيث صنع من شخصية " أحمد الزعتر" – المتخيلة والمتأصلة في الواقع المأسوي– أسطورة خالدة تكشف ملامح قضيته، وتلخص مأساة شعب بأكمله.

والقصيدة ذات طابعٍ تسجيلي؛ حيث صوَّر فيها "درويش" حصار مخيم "تل الزعتر" شمالي شرق بيروت، الواقع في قلب المناطق المسيحية من قبل ميليشيات لبنانية (مارونية) معزّزة بقوى عربية إقليمية (سوريا)، ففي الثاني والعشرين من حزيران(يونية) عام ١٩٧٦م بدأ الهجوم، وتم حصار مخيم (تل الزعتر) الفلسطيني من الجيش السوري والقوات المارونية اللبنانية، وكانت إبادة جماعية بكل المقاييس؛ تمت في حق سكان المخيم، فأُبيد المخيم ووزع من بقي فيه على مخيمات مجاورة، وقد مثلت هذه المأساة البشعة اعتداء وحشيًا على الفلسطينيين فوق أرض عربية، وجسدت العصبية والوحشية في أبشع صورتها.

سقط مخيم تل الزعتر في الرابع عشر من أغسطس (آب) عام ١٩٧٦م، بعد مقاومة قوية باسلة صارت مضربًا للأمثال، وذلك بعد حصار دام ثنتين وخمسين يومًا مع قصف مدفعي (بنحو خمسين ألف قذيفة مدفعية) و سبعين هجومًا، وارتكبت فيه أفظع الجرائم من هتك للأعراض، وبقر لبطون الحوامل، وذبح للأطفال والنساء والشيوخ واغتصاب وإبادة الأطفال وسلب الأموال، وانتهت المجازر بعد أن خلفت ما يزيد عن ثلاثة آلاف قتيل فلسطيني، وآلاف الجرحى من المقاتلين والأهالي، وقامت الجرافات التابعة للقوات اللبنانية بتسويته بالأرض والقضاء عليه تماما " [٩]

وقد ظلت هذه الحادثة حاضرة في سجل ذاكرة "درويش" التاريخية ليقدمها من في قصيدة "أحمد الزعتر"؛ التي رسم فيها صورة بطل ملحمي أسطوري خارق يمثل قوة

الصمود والمقاومة، بطلٍ مستوحىً من واقع ملموس معيش، حيث لعب درويش في القصيدة دور الراوي/ العليم في الحديث عن شخصية "أحمد الزعتر" وتوجيه أحداثها.

والبداية مع عنوان القصيدة الذي يتكون من كلمتين: (أحمد – الزعتر)، والاسم الأول (أحمد) اسم عربي شائع، على صيغة أفعل التفضيل، مشتق من الحمد: يعنى أكثر حمدًا، ذُكر في لسان العرب" وأَحْمَد الرجلُ: صار أَمره إِلى الحمد، وأَحمدته: وجدته محمودًا ...وأَحْمَد أَمرَه: صار عنده محمودًا.(١٠)

فأحمد أي يحمده الناس على ما فيه من خصال طيب كثير المحامد، أصبح محمودا (١١).

وقد جاء الاسم مرة واحدة في القرآن الكريم وهو قول الله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام (وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ) [الصف:٦]

فأحمد من أسماء الرسول– صلى الله عليه وسلم– صانع أول ثورة عربية، وحامل الهداية والنور إلى الإنسانية، ومقدم الحلول لكل مشكلاتها، إنه يحمل دلالات ثرية؛ ويمثل الخلاص والأمل المتبقي والحلم المنتظر تحققه.

فهو نموذج الخصال الطيبة، والقوة المتحققة من قدرته على الفعل المؤثر وجلب الثناء، والقدسية التي تؤهله ليؤتي ما لا يأتيه غيره، باختصار هو اسم أسطوري بامتياز وفق الشاعر في اختياره.

و(الزعتر): مأخوذ من المخيم الذي شهد أعظم بطولات الشعب الفلسطيني، إنها ملحمة " تل الزعتر" التي حدثت إبان الحرب الأهلية اللبنانية، هذا الحدث التاريخي تلتقطه القصيدة وتحاول أن تصعد به إلى مستوى دلالي يصطبغ بصبغة رمزية محاولة

أن تخلق منه أسطورة معاصرة عندما تصوغه فنيًا، وبموجب هذا التركيب المقصود رمزاً و أسطورة تستوعب داخلها تاريخًا نضاليًا طويلاً(١٢).

ويمنح الشاعر (أحمد الزعتر) هذه الشخصية المتخيلة والمستمدة من الواقع في الوقت نفسه، أبعاداً أسطورية وتاريخية من خلال توظيفها في قصيدته صانعًا أسطورته الخاصة التي تستوعب الحدث داخلها، وتصبغه بسماتها، ثم تعيد طرحه من جديد عبر بنية النص الشعري.

وفي تناولنا لقصيدة محمود درويش (أحمد الزعتر) سنحاول التعرف على كيفية صناعته الأسطورة، من خلال دراسة القصيدة في إطار عدة محاور غير ملتزمين بترتيب مقاطع القصيدة؛ ليسهل علينا الوقوف على كيفية صناعة الأسطورة وتوظيفها في سياق نص درويش، خاصة في هذه القصيدة الطويلة التي تجاوزت سطورها المائتين والستين سطرًا شعريًا.

ولا يفوتنا أن نؤكد على أن هذا التقسيم للدراسة تتداخل المحاور فيه مع البناء العام للنص.

المحور الأول – أحمد الزعتر معادلاً موضوعيًا لمأساة الفلسطيني: –

يُحمّل محمود درويش شخصية (أحمد الزعتر) بملامح القضية الفلسطينية فيجعله مأساة مجسده للثابت اليومي الذي يعاينه الفلسطيني، فتبدأ القصيدة بهذا الإهداء:

ليديْن من حجر وزعترْ
هذا النشيدُ لأحمد المنسيِّ بين فراشتيْنِ
مضتِ الغيومُ وشردتني
ورمتْ معاطفها الجبالُ وخبأتني (١٣)

لقد جمع الشاعر بجسد أحمد – الفعل ورد الفعل، فالزعتر يستدعي مذبحة المخيم الشهيرة، ولن يكون لهذا الفعل رد سوى المقاومة الذي يمثلها الحجر، فأحمد الزعتر يحمل نبض الانتفاضة وقوة التمسك بالأرض إنه مشتق منها، ففعل المقاومة هو من الأرض ومن أجلها.

وطالما أن مأساة الفلسطيني تتوارى دائما في ذاكرة العالم، تختفي بين زركشات زاهية شرقا وغربا عمدا؛ فهذه القصيدة ميلاد جديد للمأساة القديمة المتجددة، فهي مهداة إلى أحمد الزعتر الأسطورة الحاضرة الواقعة، وإن شردتها الغيوم، وتعاطفت معها الجبال فأخفتها تحت معطفها؛ فستستمد من الجبال الصمود والشموخ والقوة، وتحول أسباب المعاناة إلى إعلان للوجود المستمر.

وقد عبّر الشاعر منذ البداية عن منهج الفلسطيني في المقاومة، رغم التشرد والاغتراب، وهو منهج التمسك بالأرض والوحدة في مواجهة عدوه:

نازلاً من نحلة الجرح القديم إلى تفاصيل

البلادِ، وكانت السنةُ انفصالَ البحر عن مدن
الرمادِ وكنت وحدي
ثم وحدي ...
آه يا وحدي؟ وأحمدْ
كان اغتراب البحر بين رصاصتين(١٤)

تضع هذه الصورة القارئ فعليًا في قلب الملحمة التي يصوغها الشاعر بسردية بسيطة؛ ليقف على عنف الضياع الفلسطيني وعمق اغترابه الذي وصل لقمته؛ نتيجة تراكمات الضياع (الجرح القديم)، ورغم عمق إحساس الفلسطيني بالضياع والتشرد (وحدي ثم وحدي ... آه يا وحدي) فإن هناك أملاً في تحقيق الذات والهوية يستمده الشاعر من الجبال، فكان أحمد اغترابا للبحر بين رصاصتين، رصاصة العدو ورصاصة تخلي الأشقاء.

ويواصل الشاعر شحن الشخصية بالمعاناة الفلسطينية في قوله:

مخيماً ينمو، وينجب زعترًا ومقاتلينْ
وساعداً يشتدّ في النسيانِ
ذاكرةً تجيء من القطارات التي تمضي
وأرصفة بلا مستقبلين وياسمينْ
كأن اكتشافَ الذات في العرباتِ
أو في المشهد البحريّ
في ليل الزنازين الشقيقةِ
في العلاقات السريعةِ
والسؤال عن الحقيقةِ

في كل شيء كان أحمد يلتقي بنقيضه
عشرين عامًا كان يسألْ
عشرين عامًا كان يرحلْ
عشرين عامًا لم تلده أمه إلا دقائق في
إناء الموزِ
وانسحبتْ
يريد هويةً فيصاب بالبركان
سافرت الغيوم وشردتني
ورمت معاطفها الجبال وخبأتني (١٥)

إنها رحلة البحث عن الذات الذي يفرضه الضياع الفلسطيني، البحث عن الهوية عبر طريق طويل غائم، ورحلة مرهقة تبدأ منذ الولادة، الولادة التي تمت في دقائق ثم انفصلت الأم عن ابنها، بالتأكيد لسبب قهري تفرضه المأساة التي يعيشها الشعب، قد يكون الموت مثلاً، (لم تلده أمه إلا دقائق في إناء الموز وانسحبت) إن فعل الولادة / الوجود تم بسهولة، ولكن ماذا بعد؟ لم تمنحه أمه الرعاية أو الهوية، وبدأ في تخبطه في الحياة يبحث عنها في كل مكان، وتكثر الأسئلة وتفضي إلى غيرها (عشرين عامًا كان يرحل) إنه الإحساس بالضياع في أعمق صوره، الإحساس الذي جسده المخيم الذي ينمو وتنمو معه المأساة، لكنه نماء منتج للوجود القوي (زعترا ومقاتلين وساعدا) رغم النسيان والتجاهل، فسنصنع الذاكرة من تاريخنا وبطولاتنا وأرضنا الباقية وإن خلت منا؛ وليكن اكتشاف ذاتنا في المشهد البحري بطول مساحة مياه البحر الممتدة، وفي ليل الزنازين التي أضحت من تلازمنا شقيقة، في علاقتنا السريعة التي يقطعها قتل أو تهجير أو سجن، سيظل السؤال عن الحقيقة هو منطلقنا نحو تحقيق ذاتنا، ونحو تأصيل هويتنا

التي تلوح لنا في كل شيء حقيقة تناقض خيالية أحمد الزعتر. وأخيرًا يصرخ الشاعر متوحدًا مع الشخصية:

أنا أحمد العربي – قال
أنا الرصاص البرتقال الذكريات
وجدت نفسي قرب نفسي
فابتعدت عن الندى والمشهد البحريّ
تل الزعتر الخيمةْ
وأنا البلاد وقد أتت
وتقمصتني
وأنا الذهاب المستمر إلى البلاد
وجدت نفسي ملء نفسي (١٦)

لا يمثل حصول الشخصية / الأسطورة على الهوية (أنا أحمد العربي) – بعد رحلة البحث والتساؤلات– النهاية، فماذا يريد من هذه الهوية؟ إنه يريد التحقق والوجود، يريد الراحة بعد العناء، يريد العودة إلى أمه / الأرض، يريد أن يمتلك بلاده، أن يشعر بذاته بعد أن وجدها.

أنا الرصاص / البرتقال / الذكريات، أنا الجهاد والنماء والتاريخ، وجدت نفسي في اغترابي عن نفسي مع هويتي العربية، أنا ملحمة حامية لوجودي، أنا الوطن والوطن حيث أكون، فأنا أسطورة الفلسطيني القابلة للتحقق.

راح أحمد يلتقي بضلوعه ويديه
كان الخطوة – الخيمةْ

ومن المحيط إلى الخليج، من الخليج إلى المحيط
كانوا يعدون الرماح
وأحمد العربي يصعد كي يرى حيفا
ويقفز
أحمد الآن الرهينةْ
تركت شوارعها المدينةْ
لتقتله
ومن الخليج إلى المحيطِ ، من المحيط إلى الخليجْ
كانوا يعدّون الجنازةَ
وانتخابَ المقصلة (١٧)

مع الهوية المعلنة (أنا أحمد العربي) وبقيم التمكن في الأسطورة الممكنة، راح أحمد يلتقى بضلوعه ويده وجسده، وأصبح نجمة تألقاً، والبداية من الهوية الأصيلة التي تستطيع أن ترفو الخرائط الممزقة، من الخليج إلى المحيط، والأخوة (كانوا يعدون الرماح) وأحمد يرتقي، يفاخر ويقترب من التمكن، ولكن خذلته هويته، وتخلى عنه أهله وإخوانه من العرب الذين وجد ذاته في نسبه إليهم، فبعد أن وجد نفسه، وتخيل أن إخوانه من المحيط إلى الخليج يعدون عدتهم لنصره؛ خذلوه – ابتعدوا عنه – سقط رهينة في يد أعدائه، فلم يتحركوا لنجدته، ورأى عدتهم عليه، وحين استعد أعداؤه لقتله، لم يتحركوا لإنقاذه، وساعدوا في اختيار مقصلته، وذهبوا ليُعدوا جنازته، ماذا أفادته الهوية؟

المحور الثاني– أحمد الزعتر – سماته الأسطورية:

لقد أضفى درويش سمات أسطورية على شخصية أحمد الزعتر المتخيلة الواقعية من خلال توظيفها في بنية النص الشعري، ليعمق من دلالاتها الأسطورية، ويعبر من خلال تفاعلها السياقي عن رؤيته الشعرية الخاصة، ونجد ذلك في قوله:

أنا أحمد العربي فليأتِ الحصارْ
جسدي هو الأسوار – فليأت الحصار
وأنا حدود النار – فليأت الحصار
وأنا أحاصركم
أحاصركم
وصدري باب كل الناس – فليأتِ الحصارْ (١٨)

رغم تخلي مَنْ ينتسب أحمد إليهم عنه؛ فإنه يتمسك بهذه الهوية العربية، ويعلن التحديات من خلال تلك السمات الأسطورية التي تشكله (فليأت الحصار) تتكرر هذه الجملة إمعانًا في إعلان التحدي، ففي الأسطورة لا حقائق مؤكدة، تتبدل الأدوار، فهذا أحمد يُحاصر عدوه من خلال فعل المقاومة الذي لا يهدأ بل يزداد التهابًا، وهذا أحمد يحاصر إخوانه العرب من خلال تجسيد عجزهم وفضح تخاذلهم، وهذا أحمد يحاصر البشر من خلال الضغط على ضمائرهم، فالضمير الإنساني يشعر ولا يفعل، إنه أحمد الزعتر الذي ينفتح على كل الناس، يستوعبهم، ويعلن التحدي بوجوده الأسطوري:

كان المخيم جسمَ أحمدْ
كانت دمشق جفون أحمد
كان الحجاز ظلال أحمد

صار الحصار مرور أحمد فوق أفئدة الملايين
الأسيرةْ
صار الحصار هجوم أحمد
والبحر طلقته الأخيرةْ! (١٩)

أحمد الزعتر الأسطورة يرسم جغرافية الوطن العربي تأكيدًا على هويته، إنه البطل الأسطوري الذي يتوحد بالأرض، فالمخيم (تل الزعتر) هو جسده، ودمشق جفونه والحجاز ظله، فبطلنا يمنح الأرض حيوية متفاعلة مع وجوده الحتمي بوصفه أسطورة، وعند مروره فوق قلوب الملايين من البشر الأسيرة بخوفها وعجزها، صار هو الحصار؛ لأنه يجسد هذه المعاني، التي يجب الهجوم عليها لتدميرها، وعند تدمير العجز يتحقق الحلم.

وماذا بعد قتل أحمد:

وتموت قرب دمي وتحيا في الطحين
ونزور صمتك حين تطلبنا يداك
وحين تشغلنا اليراعةُ
مشتِ الخيول على العصافير الصغيرة.
فابتكرنا الياسمينْ
ليغيب وجه الموت عن كلماتنا
فاذهب بعيدًا في الغمام وفي الزراعةْ
لا وقت للمنفى وأغنيتي .....
سيجرفنا زحام الموت فأذهب في الزحامْ
لنصاب بالوطن البسيط باحتمال الياسمينْ.

فاذهب عميقًا في دمي
اذهب براعم
فاذهب عميقًا في دمي
واذهب خواتم
واذهب عميقًا في دمي
اذهب سلالم (٢٠)

يموت أحمد الأسطوري ويحيا في كل بطل، في كل فعل للمقاومة، في كل معنى للصمود؛ يموت ليمتلك القوة الكبرى بعد موته كمعظم الأساطير المعروفة، لقد أصبح روح الأشياء وتوحد مع عناصر الطبيعة؛ ليعطي فعل المقاومة فاعليته وقوته، فحتى إذا زحفت خيول الموت التي يسوقها العدو علينا، وكنا عصافير صغيره ضعيفة، سنستمد قوة المقاومة من الياسمين نبت الأرض الذي يحمل روح أحمد، والغمام الذي يرسم وجه أحمد، والنفي أغنية أحمد، ذهب أحمد ليبقى، ويكون الوطن؛ فيغيب الموت وتتعمق الأسطورة في دمنا وسيلة للصمود والوجود.

المحور الثالث– أحمد الزعتر – فعل المقاومة:

لقد صنع الشاعر أحمد الزعتر أسطورة ليقوم، جسد فيه مأساة الفلسطيني ليقاوم، منحه سمات البطل الأسطوري ليقاوم، وفي اللحظة نفسها يشعل المقاومة التي هي طريق الفلسطيني الوحيد للتخلص من تشرده وضياعه؛ ليستعيد أرضه ووطنه ويحقق ذاته، إنها قوته التي ستمكنه من تغيير واقعه وتجسيد حلمه.

فدرويش بوصفه شاعرا مناضلاً يؤمن بأن المقاومة هي النهج الوحيد للوصول إلى الحق المغتصب:

يا أيها الولد المكرّس للندى
قاومْ
يا أيها البلد/ المسدس في دمي
قاومْ
الآن أُكمل فيك أغنيتي
وأذهبُ في حصاركْ
والآن أكمل فيك أسئلتي
وأولد في غباركْ
فأذهب إلى قلبي تجد شعبي
شعوبًا في انفجاركْ (٢١)

قاوم، هذا هو الفعل، هذا هو المنهج والنهج، هذا هو الوجود المتحقق في أسطورتنا المصنوعة بدمائنا ومشاعرنا، وسلاح المقاومة يكمن – في الأصل – في الدم – في الانتماء، في إرادة التمسك بالأرض والوجود، في اكتمال الأسئلة، في كل نفس

يولد من جديد من رحم أسطورتنا، وعند انفجار أحمد الزعتر بالمقاومة سيحقق الأمل في تحقق وجود الشعب.

يا أحمد العربي ..... قاوم!
لا وقت للمنفى وأغنيتي..
سنذهب في الحصار
حتى رصيف الخبز والأمواج.
تلك مساحتي ومساحة الوطن – الملازم
موت أمام الحكم
أو حلم يموت على الشعار
فأذهب عميقًا في دمي وأذهب عميقًا في الطحين
لنصاب بالوطن البسيط وباحتمال الياسمين (٢٢)

قاوم، بالتمسك بالهوية، قاوم بإيمان القضية، لا وقت للمنفى أو الاستسلام، أسطورتك واقعة حقيقة، تسري كأغنية، متخطية حواجز النفي والحصار؛ لأنها في روح كل ما يمس وجودنا، في مساحة الوطن داخلنا وعلى أجسامنا، وفي ملامحنا، خرائطنا هي ذواتنا الصامدة المقاومة، وحلمنا سيتحقق بالضرورة واقعا.

سيمضي الشاعر وأسطورته في طريقهما الذي حدداه منذ البداية، حتى يصل الجميع إلى الغاية، إلى تحقق الحلم، إلى الخير الذي سيعم على الجميع في الوطن؛ حيث تفرزه المساحة التي يخلقها الحلم في مقابل الموت، ففي نهاية الطريق حتى ولو مات الحلم – ليس موت فناء، بل موت تماسك وإصرار – سنحقق الوطن طالما أننا:

صامدون

وصامدون

وصامدون [٢٣]

لقد أكسب محمود درويش أحمد الزعتر سمات أسطورية عميقة، وحمّلها بدلالات وطاقات إيحائية متفاعلة مع معاناة الفلسطيني البطل، فمن مأساة قومه استطاع أن يصنع حالة أسطورية ملحمية، اختزل فيها الزمن، وأزال فوارقه ليطرح هذا الرمز/ الأسطورة حرًا متفاعلاً في السياق بكل شحناته الدلالية المكثفة، ليصبح حافزًا يوقظ جميع العذابات ليدفع نحو التحرك الفاعل المغير في طريق تحقيق الحلم.

لقد استطاع درويش أن يشكل بوجدانه ومشاعره وقدراته التعبيرية أسطورة تزداد مع الأيام بريقًا، وتقع في الضمير الإنساني موقع المأساة في قصيدة شعرية ملحمية لها شكلها الخاص.

فممارسة الحق الإنساني في أبسط صوره أصبح ضربًا من الجنون في مواجهة فجور العدو، ولكن التمسك بالحق، التمسك بالوجود يمنح القوة اللازمة للمقاومة لآخر نبضٍ للحياة ومع بعد الحياة، والمقاومة هي الطريق الذي يجب أن يسلكه الفلسطيني ليعلن عن وجوده ويدافع عن حقه، عن كينونته، ويبقى الوطن.

الهـــوامـش:

(١) فراس السّواح: مغامرة العقل الأولى، دراسة في الأسطورة، دار الكلمة، بيروت، ط١، ١٩٨١، ص ١٦

(٢) فراس السواح: الأسطورة والمعنى (دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية)، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، دمشق، ط٢، ٢٠٠٢م، ص٣٥

(٣) مراد وهبة: المعجم الفلسفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١، ٢٠١٦م، ص٦٥.

(٤) نضال الصالح: النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة ١٩٦٧-١٩٩٢، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط١، ٢٠٠١م، ص ٢٠.

(٥) محمد عصمت حمدي، الكاتب العربي والأسطورة، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٦٨، ص١٢.

(٦) د. عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر (قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية)، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٣، ص ٢١٧

(٧) د. وليد منير: نص الهوية (قراءة في محمود درويش) الهيئة العامة لقصور الثقافة (سلسلة كتابات نقدية)، القاهرة، ط١، ديسمبر ٢٠٠٣، ص ٩٠

(٨) د. عبد الناصر حسن، صانع الأسطورة في الشعر العربي الحديث، الهيئة العامة لقصور الثقافة (كتابات نقدية) القاهرة ٢٠١٦، ص ٣٦٢

(٩) يراجع الدكتور عز الدين المناصرة: (قصة الثورة الفلسطينية في لبنان ١٩٧٢-١٩٨٢)، الدار الأهلية، عمان ٢٠١٠، ويراجع: مسعود الخوند، الموسوعة التاريخية الجغرافية، (لبنان)، الشركة العالمية للموسوعات، بيروت، ج١٦، ط٣، ٢٠٠٥، ٣٥٥-٣٥٧

(١٠) لسان العرب (حمد)

(١١) د/ رضا نصر، قاموس الأسماء العربية والمعربة تفسير معناها، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٣، ٢٠٠٣، ص٢٧

(١٢) يراجع: محمد لطفي اليوسفي، في بنية الشعر العربي المعاصر، سراس للنشر، تونس، ط٢، ١٩٩٢م، ص٧٢، ومحمد إبراهيم الحاج صالح، أحمد الزعتر، مجلة القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، العدد (١٥١) يونية ١٩٩٥، صـ ١٢٦.

(١٣) محمود درويش، الديوان. د. أعراس. ق (أحمد الزعتر) صـ ٥٩٥.

(١٤) المصدر السابق صـ ٥٩٥.

(١٥) المصدر السابق صـ ٥٩٦.

(١٦) المصدر السابق صـ ٥٩٦، ٥٩٧.

(١٧) المصدر السابق صـ ٥٩٧.

(١٨) المصدر السابق صـ ٥٩٨.

(١٩) المصدر السابق، صـ ٦٠٥.

(٢٠) المصدر السابق صـ ٦٠٥ , ٦٠٦.

(٢١) المصدر السابق صـ ٥٩٩.

(٢٢) المصدر السابق صـ ٦٠٦، ٦٠٧.

(٢٣) المصدر السابق صـ ٦٠٣.

المصادر والمراجع

ابن منظور، لسان العرب (حمد)

أحمد درويش، ملامح التجسيد الفني الظاهرة الحرية في شعر محمود درويش، فصول م١١، ع١، ربيع ١٩٩٢، ط٢، يناير ١٩٩٣.

د. أحمد كمال زكي، الأساطير دراسة حضارية مقارنه: الهيئة العامة لقصور الثقافة (ذاكرة الكتابة) ط٢، ٢٠٠٠.

إيدوارد سعيد، تلاحمك عسير للشعر وللذاكرة الجمعية، مجلة القاهرة، ع ١، ١٥ يونيو ١٩٩٥.

د/ حاتم الصكر، مرايا نرسيس، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ط١، ١٩٩٩.

د/ رضا نصر، قاموس الأسماء العربية والمعربة تفسير معناها، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٣، ٢٠٠٣م

رولان بارت، الدرجة صفر في الكتابة، محمد برادة، الشركة المغربية، ط ٣، ١٩٨٥.

سيلفي منصور، جيل الانتفاضة. ت: نصير مرُوّة، مؤسسة الدراسات الفلسطينية بيروت – ط ١ – ١٩٩٠.

شاكر النابلسي، مجنون التراب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٧.

د. شكري محمد عياد، البطل في الأدب والأساطير، دار المعرفة ط٢ فبراير ١٩٧١، صـ ٧٦.

د. صلاح فضل، أساليب الشعرية المعاصرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، (كتابات نقدية)، أغسطس ١٩٩٦.

عبد الله السمطي، محمود درويش ومواقيت القصيدة (مقال) القاهرة – الهيئة المصرية العامة للكتاب – العدد (١٥١) يونية ١٩٩٥ صـ ٧٨.

د. عبد الناصر حسن، صانع الأسطورة في الشعر العربي الحديث، الهيئة العامة لقصور الثقافة (كتابات نقدية) القاهرة ٢٠١٦.

د. عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر (قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية)، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٣

د. عز الدين المناصرة: (قصة الثورة الفلسطينية في لبنان ١٩٧٢–١٩٨٢)، الدار الأهلية – عمان ٢٠١٠. الموسوعة التاريخية الجغرافية.... جريدة السفير: تل الزعتر الرواية غير المحكية)

د. غالي شكري – محمود درويش عصفور الجنة أم طائر النار – " مقال " القاهرة يونية ١٩٩٥ ع ١٥١.

فراس السّواح: مغامرة العقل الأولى، دراسة في الأسطورة، ط١، دار الكلمة، بيروت، ١٩٨١.

فراس السواح: الأسطورة والمعنى (دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية)، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، دمشق، ط٢، ٢٠٠٢م.

محمد إبراهيم الحاج صالح، أحمد الزعتر (مقال) القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، العدد (١٥١) يونية ١٩٩٥.

محمد عصمت حمدي، الكاتب العربي والأسطورة، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة، ط١، ١٩٦٨.

د/ محمد فكري الجزار – الخطاب الشعري عند محمود درويش، دار إيتراك للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠١م.

محمد لطفي اليوسفي، في بنية الشعر العربي المعاصر، سراس للنشر، تونس، ط٢، ١٩٩٢م

د/ محمد مفتاح، استراتيجية التناص، المركز الثقافي العربي، بيروت / الدار البيضاء، ط٣، ١٩٩٢.

محمود درويش – الديوان، دار العودة، بيروت، ط ١٢، ١٩٨٧م، د. أعراس. ق (أحمد الزعتر)

مراد وهبة: المعجم الفلسفي، ط١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٦.

مسعود الخوند، الموسوعة التاريخية الجغرافية، (لبنان)، الشركة العالمية للموسوعات، بيروت، ج١٦، ط٣، ٢٠٠٥.

د. ناصر الدين سعيدوني، فكرة الأسطورة وكتابة التاريخ (مقال) مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع ٤، م ٤٠، أبريل– يونيو ٢٠١٢

نضال الصالح: النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة ١٩٦٧–١٩٩٢، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط١، ٢٠٠١م

د. وليد منير: نص الهوية (قراءة في محمود درويش) الهيئة العامة لقصور الثقافة (سلسلة كتابات نقدية)، القاهرة، ط١، ديسمبر ٢٠٠٣.

The Legend Industry ("Tal Zaatar" Poem as a Model)

Dr. Abd ElSalam Bahgat Sallam
Faculty of Education
Sadat City University

Abstract

Reality may exceed the repercussions of imagination, overcome the axioms of logic, transcend intelligible, and become more difficult to perceive with reason, if reality is an inherent part of belief. And a skill that enables him to fit between reality, here we are facing the ingredients for making a complete myth that possesses its unique distinctive characteristics.

The poet resorted - then - to making legend to reproduce the world at the symbol level, and Mahmoud Darwish's poetic speech from the beginning expresses the suffering of the Palestinian people, as he expresses his reality and expresses himself Among the most prominent poems of Darwish, which embodied the techniques of making a legend in Arabic poetry is the poem "Ahmed Al-Zaatar," where he made from the character of the hero a legend immortal bearing the features of his case, and summarizes the tragedy of an entire people.

Keywords: Legend, Symbol, Industry, Mahmoud Darwish, Ahmed Al Zaatar, Palestine